﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التّوبة: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مُتابَعةُ كشْفِ خبايَا المُنافقين، وتحذيرِهم من مغبّة الاستهزاء بالدّين

ما زال السِّياقُ الكريمُ يُتابعُ كشْفَ خبايَا المُنافقين للمسلمين، ويُعَرِّي لهم جرائمَ نفاقِهم التي حاولُوا طويلًا تَغطيتَها ولو بالإيمانِ الكاذبةِ إرضاءً للمسلمين، حتى يبلغَ السّياقُ هنا مبلغَ التّصريحِ بذكْرِ المُنافقين مباشرةً - وَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى - بعدَما طالَ الحديثُ عنهم بطريقِ الكنايةِ بذكْرِ قبائحِهم واحدةً واحدةً، وبعدَ تَكرارِ ذِكْرِ صنوفِهم المَقيتةِ بلفْظِ: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ من يفعلُ كذا ﴿وَمِنْهُمُ﴾ من يفعلُ وكذا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحۡذَرُ﴾: "الحَذَرُ: احترازٌ مِن مُخيفٍ، يقال: حَذِرَ حَذَراً، وحذرتُه، قال تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [الزمر: 9]، وقال تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71] أي: ما فيه الحَذَرُ مِنَ السّلاحِ وغيرِه"(1).

و"رجل حَذِرٌ وحَذُرٌ أي: متيقِّظ متحرّز... وقد وردَ الحَذَرُ في القرآن على ثلاثةِ أوجُهٍ: الأوّلُ بمعنى الخوفِ والخطرِ ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾ [آل عمران: 28، 30] أي: يُخوِّفُكم. الثّاني: بمعنى الإباءِ والامْتناعِ ﴿وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ﴾ [المائدة: 41] أي: امتنعُوا. الثّالثُ: بمعنى كِتمانِ السّرِّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤﴾ [التوبة: 64] أي: مَظهرٌ ما تكتمُون"(2).

2) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: يُقال: "نَفَقَ الشَّيْءُ: مَضَى ونَفِدَ، والنَّفَقُ، يَدّل

(1) الرّاغب، المفردات: (حذر).
(2) الفِيروزابادِيّ، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).

على إخفاءِ الشيءِ وإغماضِه.والنِّفَاقُ، وهو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نبَّه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: 67] أي: الخارجون منَ الشَّرْعِ، وجعل اللّه المُنافقين شَرّاً منَ الكافرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]"[1].

3) ﴿سُورَةٌ﴾: "السُّورَةُ: المنزلةُ الرّفيعةُ... وسُورُ المدينةِ: حائطُها المُشتمِلُ عليها، وسُورَةُ القرآن تشبيهًا به لكونِها مُحاطًا بها إحاطةَ السُّورِ بالمدينةِ، أو لكونِها منزلةً كمنازلِ القمرِ، ومن قال: سُؤرةٌ فمن أسأرتُ، أي: أبقيتُ منها بقيّةً، كأنّها قطعةٌ مُفردةٌ من جُملةِ القرآن، وقولُه: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: 1]، أي: جُملةٌ من الأحكامِ والحِكمِ، وقيل: أسأرتُ في القدحِ، أي: أبقيتُ فيه سؤرًا، أي: بقيّةً"[2].

و"سورةٌ - بالهمز وبتركه -، بغير الهمْزِ من سَوْرة الأَسد، وسَورةِ الشّرابِ، بمعنى القُوّة؛ لأَنَّ قوَّةَ السُّورةِ أكثرُ من قوّة الآيةِ؛ أَو منَ السُّور بمعنى الجماعةِ، يقال: لفلانٍ سُورٌ منَ الإبل أَي: جماعة؛ لأَنَّ السُّورةَ مُشتمِلةٌ على جماعة الآياتِ، أَو منَ السُّورِ المحيطِ بالأَبنيّةِ؛ لأَنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ، والكلماتِ، والحروفِ، مُشتملةٌ على المعاني منَ الأَمرِ والنَّهْيِ، والأَحكامِ، وإذا قلتَ بالهمْزِ فيكونُ من سُؤرِ الكأْس - وهو ما يبقَى فيه منَ الشّراب - لأَنَّ كلَّ سُورةٍ منَ القرآن بقيَّةٌ منه. ويُقالُ: إنَّ السُّورَ (بلا همز) بمعنى الرَّفعةِ والمنزلةِ، وسُوَرُ القرآن هكذا مُتفاوتةٌ: بعضُها فوق بعضٍ من جهة الطُّولِ، والقصْرِ، وفي الفضلِ، والشّرفِ، والرُّتبةِ"[3]، وسُورةٌ هنا تعي: "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"[4].

4) ﴿تُنَبِّئُهُم﴾: "**النَّبَأُ**: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علْمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصلِ نَبَأٌ حتى يتضمّنَ هذه الأشياءُ الثّلاثةُ، وحقُّ الخبرِ الذي يقالُ فيه نَبَأٌ أن يَتعرَّى عنِ الكذبِ، كالتّواتُرِ، وخبَرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيِّ ﷺ. ولِتضمُّنِ النَّبَإِ معنَى الخبرِ يقالُ: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرتُه بكذا، ولِتضمُّنِه معنى العِلْمِ قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمْتُه كذا. قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [ص 67، 68]... فتنبيهٌ أنّه

(1) الرّاغب، المفردات: (نفق)، والفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (نفق).
(2) الرّاغب، المفردات: (سور).
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/84.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

إذا كان الخبرُ شيئًا عظيمًا له قدْرٌ فحقُّه أن يتوقّفَ فيه، وإن علِمَ وغلَبَ صِحّتَه على الظّنِّ حتى يُعادَ النّظرُ فيه، ويتبيّنَ فضْلَ تبيُّنٍ، يقال: نَبَّأْتُهُ وأَنْبَأْتُهُ. قال تعالى: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: 31]... ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: 3]، ولم يقُلْ: أَنْبَأَنِي، بل عَدَلَ إلى نَبَّأَ الّذي هو أبلغُ تنبيهًا على تحقيقِه وكوْنِه من قِبَلِ الله، وكذا قولُه: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾"[1].

5) ﴿قُلُوبِهِمْ﴾: جمعُ قَلْبٍ، و"قَلْبُ الشّيءِ: تصريفُه، وصَرْفُه عن وجْه إلى وجهٍ... والانْقِلابُ: الانصرافُ، قال: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [آل عمران: 144]... وقَلْبُ الإنسانِ قيل: سُمّيَ به لكثرةِ تَقَلُّبِه، ويُعبَّرُ بالقلْبِ عنِ المعاني التي تختصُّ به منَ الرُّوحِ والعلْمِ والشّجاعةِ وغيرِ ذلك، وقولُه: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: 10] أي: الأرواحُ. وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] أي: علْمٌ وفهْمٌ... وتَقْليبُ الله القلوبَ والبصائرَ: صرْفُها من رأيٍ إلى رأيٍ، قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ [الأنعام: 110]، وتَقْليبُ اليدِ: عبارةٌ عنِ النّدمِ ذكْرًا لحالِ ما يوجدُ عليه النّادمُ، قال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ [الكهف: 42] أي: يُصفّقُ ندامةً"[2].

6) ﴿ٱسْتَهْزِءُوا۟﴾: "الهُزْءُ: مَزْحٌ في خِفْيَة، تقول: هَزِئْتُ من فُلانٍ، وهزِئْتُ بِهِ... هُزْءاً وهُزُؤاً، سَخِرْتُ. وهَزَأْتُ به أيضاً، وقد يُقال الهُزْؤ لِمَا هو كالمَزْح؛ فممّا قُصِدَ به المَزْحُ قولُه تعالى: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ﴾ [البقرة: 67]، وقولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ﴾ [الجاثية: 9]، عَظَّمَ تَبْكِيتَهم ونَبَّهَ على خُبْثِهم من حيثُ إنَّه وصَفَهم بأنَّهم بعْدَ العِلْم بها والوُقوفِ على صِحَّتِها يَهْزَؤُون بها.

وإن كان قد يُعَبرُّ به عن تَعاطِي الهُزْءِ، كالاستِجابَةِ في كَوْنِها ارْتِياداً للإجابة، وإن كان قد يَجْرِي مَجْرَى الإجابةِ. وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: 65]"[3].

7) ﴿مُخْرِجُ﴾: "خرَجَ فلانٌ وغيرُه: بَرَزَ مِن موْضِعِه أو مَقَرِّه وظهرَ، ضدُّ دخَلَ:

(1) الرّاغب، المفردات: (نبأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قلب).
(3) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (هزء).

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: 58]، وخرَجَ العملُ إلى النُّور: ظهرَ، وأخرجَ الشَّيءَ: أبرزَه وأظْهرَه... وأخرجَ اللّهُ ما في قلبه: أظهره: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩﴾ [محمد: 29]"[1]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أي: مُظهِرٌ ما تكتمون"[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يترقَّبُ المُنافقون فضْحَ سَرائِرهم، بالوحي الكاشف للاستهزاء الخفيّ

معنَى الآيةِ الكريمةِ: يترقَّبُ المُنافقون بتَوَجُّسٍ أن يَفضَحَ اللّه تعالى سرائرَهم، وأن يَكشفَ للمسلمين قبائحَهم، في سُورة - يُنَزِّلُها على رسولِه ﷺ - تَصُبُّ عليهم الخِزيَ والعارَ؛ وقد كانوا "يَقُولُونَ القَوْلَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَقُولُونَ: عَسَى اللّه أَلَّا يُفْشِيَ عَلَيْنَا سِرَّنَا هَذَا"[3]؛ فهدّدَهم اللّه تعالى بأمرٍ غاضِبٍ ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ بأنّه "سَيُنْزِلُ عَلَى رَسُولِهِ مَا يَفْضَحُكُمْ بِهِ، وَيُبَيِّنُ لَهُ أَمْرَكُمْ"[4].

وكان ذلك التّهديدُ جديرًا بأن يرُدَّهم عنِ الكيْدِ للدّين، ولكنَّ النّفاقَ أعمَى قلوبَهم حتى تحقّقَ فيهم التَّهديدُ، وأظْهرَ اللّه تعالى أضْغانَهم، فأجْلاهُمُ الرّسولُ ﷺ منَ المدينةِ المنورةِ، ومَزَّقهم أشتاتًا إلى حيث يَستحِقُّون.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الاسْتئنافِ بلفظ ﴿يَحۡذَرُ﴾:

إظْهارُ الإيمانِ بالمُعجزاتِ، يَكشفُ خوْفَ المُنافقين منَ الفَضْحِ

فُصِلتْ جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ عن جُملةِ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿يَحۡذَرُ﴾ خبرٌ، والسّابقةُ كانت إنشاءً نَوْعُه اسْتفهامٌ، كذلك جُملةُ ﴿يَحۡذَرُ﴾ "اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِذِكْرِ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ...

(1) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرج).
(2) الفِيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: (حذر).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/170.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/171.

وَهُوَ إِظْهَارُهُمُ الإيمانَ بِالْمُعْجِزَاتِ، وَإِخْبَارُ اللهِ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُغَيَّبَاتِ"[1]؛ لذا وجبَ الفصْلُ لكمالِ الانقطاعِ.

بَلاغةُ الكِنايةِ في لفْظةِ ﴿يَحْذَرُ﴾:

المُنافقونَ يَعْلَمُونَ أَنَّ الدِّينَ حَقٌّ، وَلَكِنَّ العِنَادَ غَشّى على بصائرهم

جُملةُ "﴿يَحْذَرُ﴾ خبرٌ عن حالِ قلوبِهم، أو عمَّا يُظهرونُه للمسلمين تَصَنُّعًا، وحَذَرُهُم إنّما هو أن تُتلَى سُورةٌ، ومُعتقدُهم أَتَنْزِلُ أم لا؟ ليس بِنَصٍّ في الآيةِ لكنّه ظاهرٌ، فإن حُمِلَ على مُقتضَى نِفاقِهم واعتقادِهم أنّ ذلك ليس من عندِ اللهِ تعالى فوجْهٌ بَيِّنٌ، وإن قيل: إنّهم يعتقدون نزولَ ذلك من عندِ اللهِ وهم يُنافقون مع ذلك فهذا كُفْرُ عِنادٍ"[2]. قال الطّبريُّ: "المنافقون كانوا إذا عابُوا رسولَ اللهِ ﷺ وذكرُوا شيئًا من أمره وأمْرِ المسلمين قالوا: لعلَّ اللهَ لا يُفشي سِرَّنا؛ فنزلتِ الآيةُ في ذلك"[3]، "وهذا يقتضِي أنّه كفرُ العِنادِ"[4]، ففي كلمةِ ﴿يَحْذَرُ﴾ كنايةٌ عن أنّهم مُوقِنون بأنَّ هذا الدّينَ من عندِ اللهِ تعالى قطْعًا، وأنَّ محمّدًا رسولُ اللهِ حقًّا.. فهم إذن لا يُكذِّبون بالدِّين، وإنّما يَجْحَدون رسولَ اللهِ ﷺ، ويَرفضُون قَبولَ الإسلامِ؛ لأنّه لم يَنزلْ فيهم على رجلٍ منهم.

إِيثَارُ لفْظِ ﴿تَحْذَرُونَ﴾ دُونَ غيرِه:

المُنافقون عاجِزون عنِ النَّجاةِ بأنفُسِهم

وآثرَ النَّظمُ الكريمُ مادّةَ الحَذَرِ التي تُفيدُ أنّهم يعيشون التّوتُّرَ الظّاهريَّ كما يعيشون الخوفَ والتّوجُّسَ الدّاخليَّ، وقد "كانوا يَستهزئون بالإسلامِ وأهلِه، وكانوا يَحذَرون أن يفضَحَهمُ اللهُ تعالى بالوحْيِ فيهم، حتى قال بعضُهم: واللهِ لا أُرانا إلا شرَّ خلْقِ اللهِ، لَوَدِدْتُ أنّي قُدِّمتُ فجُلِدتُ مائةَ جلدةٍ، وألَّا ينزلَ فينا شيءٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/54.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/331.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/55.

يفضَحُنا"[1]، وذلك يُقَرِّرُ تصْديقَهم الرّسولَ ﷺ في دعواهُ الرّسالةَ السّماويّةَ، وأنّه حقًّا رسولٌ يُوحَى إليه منَ اللّه تعالى، وإلا فماذا يَخْشَوْن من رَجُلٍ لا يَطَّلِعُ على أخبارِهم، ولا يَكشفُ اللّه تعالى له خبايَاهُم، ولا يُطْلِعُه على ذمِّهم إيّاه، ولَمْزِهم دينَه الجديدَ الذي يزعُمُ إن كانوا صادقِين؟ وهكذا يَنْتَقِي الذّكرُ الحكيمُ ألفاظَه المُصَوِّرَةَ بطبْعِها، والحذرُ وإن كان يدْفعُ الضَّررَ - وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك[2] - فإنَّ المنافقين معه إزاءَ تَنَزُّلِ سُورةٍ تفضحُهم عاجزون عنِ التَّوَقِّي والنّجاةِ؛ لأنَّ الأمرَ فوق أنْ يَتَوَقَّوْه؛ لأنّه ينزلُ منَ السماء.

نُكتةٌ صَوتيّةٌ تتعلّق بالفعْلِ ﴿يَحْذَرُ﴾:

البِناءُ الصّوتيُّ يَحكِي تَردُّدَ المُنافقين ويُصوِّرُ توتُّرَهم

وإلى ذلك يُحِسُّ المُتلقِّي أنَّ الإيقاعَ الصّوتيَّ للفعل ﴿يَحْذَرُ﴾ يُناسبُ حالتَهم، ويَختلفُ أكثرَ عنِ الإيقاعِ الصّوتيِّ للفعل: يخافُ؛ في أنَّ السّكونَ في وسَطِ ﴿يَحْذَرُ﴾ يَحكِي التَّوتّرَ والتّردُّدَ الذي يعالجُه المنافقون ويعانونَه في دواخِلِهم، أمّا الفعلُ يخاف فوسَطُه مَدٌّ يُتيحُ تنفيسَ قَدْرٍ منَ ذلك التّوتّرِ والرُّعبِ، وإخراجَ بعْض كُرْبتِهم المكبوتةِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفعْلِ المضارع ﴿يَحْذَرُ﴾:

المُنافِقُونَ أَضْعَفُ النَّاسِ، وَإِنْ أَبْدَوا التَّجَلُّدَ

المضارعةُ هنا تُصوِّرُ تيقُّظَ المنافقين المتجدِّدَ، بلا فتورٍ ولا توقُّفٍ؛ ترقُّبًا لِنزولِ أخبارٍ منَ السّماءِ تفضَحُهم وتكشفُ سَترَهم للرّسولِ ﷺ والصّحبِ الأخيارِ، فلا قرارَ لهم ولا راحةَ، وقد وقعُوا في رسولِ اللّه ﷺ، وفي دينِه الحنيفِ، وفي أتباعِه المؤمنين، جُبْنًا وضآلةً، وتلك حالةُ المنافقين أبدًا؛ يُكابدون إخفاءَ نفاقِهم وحقْدِهم وإن أظهرُوا للمؤمنين التّجلُّدَ، وذلك دليلُ ضعْفِهم وجُبْنِهم.

الغرَضُ من وضْعِ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ:

منَ اللّافتِ أنَّ المنافقين لم يُذكَروا في القرآن الكريمِ ضميرًا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/286.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

مُتّصلًا بالفعل هكذا: الّذين نافقوا إلّا في موضعَيْن فقط[1]، أمّا في غيرِهما فقد وردَ ذِكرُهم بالاسْمِ الصّريحِ المنافقون، والمنافقات، وبلغَ ذلك حوالي إحدى وثلاثين مرّةً.

أَعْظَمُ جُزْمٍ لِلْمُنَافِقِينَ، الإِسْتِهْزاء بِدِين اللهِ تعالى لإِرْضَاءِ المَخْلُوقِينَ

في حين جاء ذكرُ الكافرين في القرآن الكريم ضميرًا مُتّصلًا بالفعْلِ هكذا: الذين كفروا كثيرًا[2]، وأكثرُ منه وردَ ذِكرُ المؤمنين ضميرًا متّصلًا بالفعْلِ هكذا: الذين آمنوا[3].

وهذا هو الموضعُ الأوّلُ الذي يُذكرُ فيه المنافقون صراحةً في سُورةِ التّوبةِ، بعد أنْ عرَّض الذّكرُ الحكيمُ بهم دونَ تصريحٍ مِن بِدايةِ السّورة الكريمةِ، وكأنّهم هنا قد بلغُوا الذّروةَ في الجُرْمِ بالحَلِفِ الكاذبِ، مُسْتهينين بأيمانِ اللّه تعالى لِغايةٍ دنيئةٍ هي إرضاءُ المخلوقين في مغضَبَةِ اللّه تعالى، وإن كانوا صحابةَ رسولِ اللّه ﷺ.

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الفاعل المصوغ من النّفاق في السّياق:

الثّباتُ على النّفاقِ، أقْبحُ وصْفٍ، وأسوأ خلق

تَذكُرُ السّورةُ الكريمةُ المنافقين باسْمِهم الصّريحِ - ذُكُورَهُم وإناثَهم - في هذه الصّفحةِ وحدَها ستَّ مرّات، وكلُّها بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ القائلِ بالثَّبَات على مبدأِ النِّفاقِ، بحيث إنّهم لا يَنفكُّون عنه ولا ينفكُّ عنهم على امتدادِ سنواتِ الرّسالةِ في المدينةِ المنوّرةِ، بل إنَّ القرآن الكريمَ يَقطعُ في هذا الحُكم العامِّ الصّريحِ بأنّ هذا دَيْدَنُ المنافقين ما بَقِيتِ الدّنيا، حتى لَيَقولُ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ﴾ [التوبة: 67]، وكأنّهم يتناسلونَ النّفاقَ، ويَتوارثونَه كما يتناسلُونَ الذَّراري: ﴿مِّنۢ بَعْضٍۘ﴾ ويَستبعدُ النّظمُ الكريمُ هنا التّعبيرَ عنهم بالضّميرِ المتّصلِ بالفعْلِ؛ لأنَّ الفعلَ لا يُترجِمُ عن تَرَسُّخِ النّفاق في نفوسِهم، وتَشَبُّعِ نفوسِهم وقلوبِهم به تشبُّعًا يَجْعلُه

(1) هما قول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ﴾ [آل عمران: 167]، وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحشر: 11].

(2) في حوالي مائتي موضع بحسب العدّ الآلي.

(3) في حوالي مائتين وستة وستين موضعًا بحسب العدّ الآلي أيضًا.

مخلوطًا بخلايا عقولِهم ونفوسِهم، بحيثُ يَصعُبُ تَغْييرُه، ولا يُناسبُه أن يُعبِّرَ عنه بالضّميرِ المتَّصلِ بالفعل؛ لأنّ الفعلَ فيه عُنصرُ الزّمن، "وَالزَّمَان غيرُ قَارِّ الذَّاتِ"[1] ولا مُستقرِّها.

الغرَضُ منَ التّعبيرِ بالمجازِ، في الفعلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾:

نُـزُولُ الـقُـرْآنِ الكَرِيمِ بِفَضَائِحِ المُنَافِقِينَ، شَدِيدُ الوَطْأَةِ عَلَيْهِمْ

التَّنزيلُ في أصْلِ وضعِه اللّغويِّ يُستعملُ في المحسوسات، يقال: "نَزَّلَ الشَّخصَ، ونَزَّل الشَّيءَ: أنزلَه، وجعله يَهْبِطُ، ونَزّلَ الصَّغيرَ من فوقِ الدّراجةِ، ونَزّل اللّهُ المطرَ، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: 9]"[2]، لكنّ القرآنَ الكريمَ يَستعملُه كثيرًا في المعقولات كما هنا؛ فيُضْفِي عليها صِفَةَ المحسوسات؛ ويمنحُها صفةَ التّجسيدِ؛ ليُحقِّقَ المبالغةَ في تَمَايُزِ المُنَزَّلِ الشّريفِ، ويُجَلِّيَه أمامَ بَصرِ القلوبِ، فيصيرَ كأنّه كُتْلةٌ محسوسةٌ تُدرَكُ بالحواسِّ الظّاهرةِ.

وفي ذلك التّصويرِ هنا مَزيدُ تَهديدٍ للمنافقين؛ بتَجْسيدِ السّورة - التي يَحذرون أنْ تُنَزَّل عليهم لِتفضَحَهم - بتشبيهِها بالشّيءِ الحِسِّيِّ الثَّقيلِ، الذي يَسقطُ من عُلْوٍ؛ فيَكسرُ ما يُنَزَّلُ عليه.

نُكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾، مُضعّفًا بالتّشديدِ:

التَّـضـعـيـفُ يَـحـكِي شِـدّةَ المُـنَـزَّلِ، فَضْحًا للمنافقين

والتَّشديدُ في الفعلِ ﴿تُنَزَّلَ﴾ يَحكي ثِقَلَ المُنَزَّلِ وشِدَّةَ وطْأتِه عليهم، وما يسبِّبُه من إهلاكِهم، والإهلاكُ هنا يُحتملُ أن يكون حقيقيًّا بأنْ يقتلَهم الرّسولُ ﷺ، ويُزهقَ أرواحَهم، وهذا ما لم يفعَلْه الرّسولُ ﷺ رحمةً بهم برغْمِ تَفاقُمِ جرائمِهم؛ وحتى لا يَمحُوَ أمّةً قد يُخرجُ اللّه تعالى من أصلابِهم مَن يُوَحِّدُه، ويُحتملُ أن يكونَ قتلًا معنويًّا، بأنْ يُخرجَهم من أرضِهم وديارِهم وأموالِهم، ويَكشفَ سَترَهم ويُخزيَهم - كما فعل ﷺ بهم - وحكاه القرآن الكريم: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: 27].

(1) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 827.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نزّل).

بلاغة حَذْفِ الفَاعِلِ فِي ﴿تُنَزَّلَ﴾:

المُـخْـزِي خـوف المُـنَـافِـقِـيـنَ مِـن الـفَـضِـيـحَـةِ الـدُّنْـيَـوِيَّـةِ لَا الأُخْرَوِيَّةِ

منَ المسلَّم أنَّ الذي يُنَزِّلُ السّورةَ باعتبار الأمْرِ هو الله تعالى، وباعْتِبارِ التّنفيذِ هو سفيرُ الوحْيِ جبريلُ، وعليه فلا داعِيَ لذِكْرِ فاعِلِ التَّنزيلِ، فحُذفَ الفاعلُ وبُنِيَ الفعلُ لغيْرِ فاعِلِه، ومنَ الإشاراتِ البلاغيّةِ لِبناء الفعل ﴿تُنَزَّلَ﴾ لغيْرِ فاعِلِه - إلى ذلك - أنَّ المنافقين ليسُوا مِنَ الشَّرَفِ والمكانةِ بحيث يُنَزِّلُ اللّه تعالى عليهم شيئًا، حتى إنّهم ليسُوا منَ الشّرفِ بحيث يُنزِّلُ عليهم جبريلُ - وهو أمينُ الوحْيِ - شيئًا، وإن كان هذا الشيءُ سُورةً تفضَحُهم، فاستبعدَ النّظمُ الكريمُ نسبةَ تنزيلِ السّورةِ عليهم إلى فاعلِه الحقيقيِّ حتى ولو كانت سُورةً فاضحةً، أو كانت بِمثابةِ قذيفةِ عذابٍ مُهلكةٍ، وإلى ذلك أيضًا يُفسِحُ حذفُ الفاعل للذِّهْنِ ليركِّزَ على المفعول به الـ ﴿سُورَةٌ﴾ الذي صار نائبَ فاعلٍ؛ لأنَّ المحذورَ هنا هو المنزَّلُ لا المنزِّلُ؛ فحُذفَ الفاعلُ للعنايةِ بإبرازِ الخطرِ المُتأججةِ نارُ حذرِه في نفوسِهم إزاءَ تلك الـ ﴿سُورَةٌ﴾ المحذورةِ.

بَلَاغَةُ التّعبيرِ بالمَجَازِ المُرسَلِ، فِي تَنْزِيلِ السُّورَةِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

المُنَافِقُونَ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنَ اللهِ تعالى

تنزيلُ السُّورةِ لا يكونُ حقيقةً إلّا على الرّسولِ ﷺ؛ لأنّه النَّبِيُّ المُرسَلُ، والمنافقون - كما سبقَ قريبًا - ليسُوا منَ الشّرف بمثابةِ أن يُوقِعَ النّظمُ الكريمُ التّنْزيلَ عليهم من قِبَلِ اللّه تعالى ولو كان المُنَزَّلُ عليهم من قِبَلِه تعالى عقوبةً، فأصلُ هذا التّركيبِ: أنْ تُنزَّلَ بِسببِهم على رسولِ اللّه ﷺ سُورةٌ تفضحُهم، فَزُحْزِحَ التّنزيلُ مِن أنْ يكونَ على رسولِ اللّه ﷺ إلى أن يكون عليهم، فَفِي ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مَجازٌ مرسَلٌ عَلاقتُه السَّببيَّةُ؛ لأنّهم سَببُه.

و"السُّورَةَ إِذَا نَزَلَتْ فِي مَعْنَاهُمْ فَهِيَ نَازِلَةٌ عَلَيْهِمْ"[1]؛ فما دام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

غايةُ تنزيلِ الـ﴿سُورَةٌ﴾ أن تفضحَهم، وقد تتسبَّبُ في قتْلهم حِسِّيًّا أو معنويًّا بإخراجِهم خَزايَا مِن أرضِهم وديارِهم وأموالِهم - كما حدث بالفعل - فإنّها ليستْ سورة تشريفٍ وإنّما هي سورة عُقوبةٍ، والعقوبةُ حقُّها أن تنزَّلَ عليهم هم مباشرةً؛ فكان في التَّعبيرِ عن ذلك المعنى بأن تُنزَّلَ السّورةُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هُمْ مناسِبًا مُتَّسقًا أتمَّ مَناسبةٍ وأبْينَها.

بَلَاغَةُ تَقْدِيمِ الجَارِّ وَالمَجْرُورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تحقُّقُ الرُّعبِ في نفوسِ المنافقين، واهتزاز موقفهم مع المؤمنين

يتآزرُ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على نائبِ الفاعل ﴿سُورَةٌ﴾ مع عطاءِ التّركيبِ في لَفْتِهم ابتداءً قَبْلَ ذِكرِ المُنزَّلِ، وفيه عِدَّةُ إشاراتٍ كلُّها فاعلةٌ في نفوسِ المنافقين:

إحْدَاها: أنّ هذا السّاقطَ من أعلَى سيكونُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هم دونَ المؤمنين؛ إذ كانوا يُشيعُون أنّهم أهلُ الحقِّ وأهلُ الجنّةِ، وأنَّ المسلمين هم أهلُ الباطلِ وأنّهم أهلُ النّار الهالكون، فقلَبَ عليهمُ الذّكرُ الحكيمُ ذلك الزّعْمَ.

ثانيتُها: تقريرُ نسبةِ الإيقاعِ أنّه ﴿عَلَيْهِمْ﴾ هم وتأكيدُه قبْلَ الوصولِ على المنزَّلِ، وأنّهم لا مناصَ لهم منَ الفضيحةِ، وربّما منَ الهلاكِ أيضًا.

ثالثتُها: أنّ الأخْذَ بأبصارِهم إلى الأعلَى - من خلال حرفِ الاسْتِعلاء على - يُحقِّقُ الرُّعبَ في نفوسِهم، ويُفيضُ التّوتّرَ على ظواهرِهم؛ إذ يأخذُ بأبصارِهم إلى أعلَى، ويشدُّها إلى فوقٍ، وكأنّ شيئًا خطيرًا سيسقطُ عليهم ويُهلكُهم.

سِرُّ التّنكيرِ في لفظ ﴿سُورَةٌ﴾:

المنافقون أهلُ فزَعٍ وهلَعٍ، من أقلِّ شيءٍ يقع

السورة "قطعةٌ منَ القرآن شديدةُ الانتظام"[1]، وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بها هنا لما تُوحِي به منَ الإحاطةِ بكلِّ ما في قلوبِهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/515.

إحاطةَ السُّورِ بما يُسوِّره، بحيث لا يَبقَى في قلوبِهم شيءٌ مخفيٌّ لا يُفضَحُ، وذلك ممّا يُضاعفُ على المنافقين الضّغطَ لينتهُوا عن نفاقِهم، ويُخلصُوا للّه تعالى دينَهم، وقد جاءت مُنكّرةً؛ لبيانِ أنَّ أقلَّ قدْرٍ يُخيفُهم، وأنّهم أهلُ فزعٍ وهلَعٍ.

سِرُّ القَيْدِ بِجُمْلَةِ الصِّفَةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

تفاصِيلُ وصْفِ السُّورةِ، زيادةُ تفزيعٍ للمنافقين الفجرة

جُملةُ القيْدِ بالصّفةِ ﴿تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تتضمّنُ فضلًا عن وصْفِ السّورةِ غايةَ إنزالِها، وتتَّسِعُ لِتستوعبَ جُملةً أصغرَ في حيِّزِها هي جملةُ الصِّلةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وكلتاهما تتآزرانِ على بيانِ مُحتوَى الـ ﴿سُورَةٌ﴾ ومهامِّها بتفاصيلَ بارعةٍ في تحقيقِ الغرَضِ.

الدِّقَّةُ في اصْطِفاءِ كلمةِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

أَحْقَادُ المُنَافِقِينَ مِنَ القُلُوبِ فِي السَّوَيْدَاءِ؛ تَفْجَؤُهُمْ بوحي من السَّمَاءِ

جُملةُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ جملةُ صِفةٍ، وهي جُملةٌ كبرَى وقعَ في حيِّزِها جملةٌ صُغرَى، لذلك صارتْ متكاثفةَ الدَّلالات والإشاراتِ، فالفعلُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ يقرِّرُ أنَّ الـ ﴿سُورَةٌ﴾ ستكشِفُ للمنافقين منَ المعاني الخبيثةِ المُستكنّةِ في قلوبِهم ما يُفاجِئُهم؛ لأنّها ليست أخبارًا مُعتادةً، وإنّما هي أنباءٌ تُبهرُهم بدقائقَ لا يعلمُها إلا هم؛ لأنّهم "لم يُظهرُوا عليه أحدًا من غيرهم، أو أحدًا مُطلقاً، ولعلَّ هذا الصّنفَ كانوا يُسلفون الأيمانَ لعلّها تُشكِّكُ بعضَ الناس أو تخفِّفُ عنهم إذا نزلَ ما يَهتِكُهم"[1].

قال أبو السّعود: "ومعنى تَنْبِئَتِها إيّاهم بما في قلوبِهم مع أنّه معلومٌ لهم - وأنَّ المَحذورَ عندهم اطِّلاعُ المُؤمنين على أسرارِهم لا اطلاعُ أنفُسِهم عليها - أنّها تُذيعُ ما كانوا يُخفُونه منْ أسرارِهم فتنتشرُ فيما بين النّاسِ فيسمعونُها من أفواه الرِّجالِ مُذاعةً، فكأنّها تُخبرُهم بها، أوِ المرادُ بِالتَّنْبِئَةِ المبالغةُ في كوْنِ السّورةِ مُشتملةً على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 8/515.

أسرارهم كأنّها تَعلمُ من أحوالِهم الباطنةِ ما لا يعلمونَه فتُنبِّئُهم بها، وتنْعِي عليهم قبائِحَهم"[1].

فكان اصْطفاءُ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ دون (تُخبرُهم) أنّ السّورةَ تغوصُ على تلك الخبيئاتِ في أعماقِهم، ولذلك "كان المسلمون يُسمُّون هذه السّورةَ الحفَّارةَ، حفرت ما في قلوبِ المنافقين وأظْهرتْه"[2]؛ وهم لِشدّةِ إخفائِهم تلك الدّقائقَ الماكرةَ لا يتوقّعون أن يُمكنَ الوصولُ إليها، لكنّها وإن كانت ممّا يخفَى على النّاسِ قطْعًا لا تخفَى على اللّه تعالى، الذي يعلمُ السّرَّ وأخفَى، فمهما يُخْفُوا تلك القبائحَ فإنّها تظهرُ، وتتجلَّى، ويَفضَحُها اللّه تعالى، ويَكشِفُها حتى يكونَ في كشْفِها مفاجأةٌ لهم لا يتوقّعونَها، وبها تنزلُ السّورةُ.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ، في الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾:

السّورةُ الفاضحةُ المُزْتَقِبةُ مِنَ المُنافِقِينَ، لَاتتأخّرعَنْ فَضْحِهِمْ

تتناغمُ المضارعةُ في الفعل ﴿يَحْذَرُ﴾ مع سِياقِ الآيةِ الكريمةِ؛ إذ تُترجِمُ عن أنّ الحَذَرُ لدى المنافقين يَتجدَّدُ، وأنَّ التّوتّرَ والتّوجُّسَ فيهم يتصاعدُ، وأنّ السورة تكشِفُ في المقابلِ خِزاياتِهم، وتَفْضَحُ مُضْمراتِهم الدّنيئةَ أوَّلًا بأوّلٍ، وأنّه كلّما تجدَّدت فيهم أو لدَيْهم خبيثةٌ جَدَّدتِ السورة لها فضْحًا، وكأنّ السورة لن تتوقّفَ عنِ التنزُّلِ بفضائِحِهم. فالمضارع لِذلك عنصرٌ يُثيرُ في نفوسِهم الذُّعْرَ لِينتهُوا عن إضمارِ مكائدَ للإسلام أو تدبيرًا ضِدَّ المسلمين.

المَجَازُ العَقْلِيّ فِي إِسْنَادِ الفِعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾:

الإذاعةُ الظّاهرةُ لِما في قلوبِهم، أبلغُ فاضِحٍ لخباياهم

معنى ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ "تُذِيعُ أَسْرَارَهُمْ إِذَاعَةً ظَاهِرَةً، فكأنّها تُخبرُهم"[3]، ففي إسنادِ الفعْلِ ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ لـ ﴿سُورَةٌ﴾ مَجازٌ عَقْلِيٌّ علاقتُه السّببيَّةُ؛ لأنّ الذي يُنبِّئهم حقيقةً هو الرّسولُ ﷺ بِخَبَرٍ ينزلُ في السّورة منَ اللّه تعالى. والنّبيُّ ﷺ هو الذي يُوحَى إليه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/516.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/93.

لا المنافقون، والسّورةُ إنّما تُنَزَّلُ على رسولِ اللّه ﷺ بما فيها من تفاصيلِ خبيئاتِهم الشّنيعةِ، ممّا يَحيكُونَه بينَهم، وتكونُ السّورةُ السببَ المباشرَ في وقوف النّبيِّ ﷺ على تلك المَخازِي، ومحلًّا لتلك التّفاصيلِ، وكأنّ السّورةَ لِقُوَّة بيانِها عن جرائمِهم المَخْفِيَّةِ في قلوبِ المنافقين صارت بحيث تَنطقُ وتُنَبِّئُ وتَفضحُ قبْلَ أن يُنبِّئَهم رسولُ اللّه ﷺ بما فيها، و"كأنّها تقولُ لهم: في قلوبِكم كيْتَ وكيْتَ، يعني أنّها تُذيعُ أسرارَهم عليهم حتى يسمعُوها مُذاعةً مُنتشرةً فكأنّها تُخبرُهم بها"[1].

بَلاغةُ الاستعارة، في كون السّورة تنبّئهم:

مَعرفةُ بواطنِ المنافقين، أصلٌ - في معاملتِهم - مكينٌ

في قولِه تعالى: ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ "اسْتعارةٌ؛ لأنّ السّورةَ نُطقُها من جهة البَرهانِ لا من جهةِ اللّسانِ، فكأنّه سُبحانه أراد أنّ النّاسَ يعلَمون بهذه السّورةِ النّازلةِ في المنافقين بواطِنَ نفوسِهم، وعقائدَ قلوبِهم"[2].

سِرُّ القيْدِ بالجارِّ والمجرورِ في جُملةِ ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾:

المنافقون لهم تاريخٌ أسودُ يَخشَون افْتِضاحَه

عبّرَ النّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الموصولِ (ما) وهو أعَمُّ الموصولاتِ، وأدخَلُها في الإبهامِ، وفيه منَ التّهديدِ بالفضْحِ الشّاملِ التّامِّ ما فيه، وقد حذَفَ متعلّقَ الجارِّ، وتقديرُه استقرَّ أو مُستقرٌّ، وفي الحذْفِ إيجازٌ، وفي هذا النّمَطِ منَ البناءِ كشْفٌ عنِ اطْمئنانِ المنافقين لِما استقرَّ في قلوبِهم، وتَوهُّمِ عدَمِ كشْفِه وبيانِه من أحدٍ.

دَلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الوِعاءِ ﴿فِي﴾:

قُلُوبُ المُنَافِقِينَ أَوْعِيَةٌ تَحْوِي أَقْذَارَ النِّفَاقِ، مِنَ الكَرَاهِيَةِ وَالكَيْدِ

الظّرفيّةُ في الجارِّ والمجرور ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يُصوِّرُ قلوبَ المنافقين أوعيةً عميقةً، يُخبِّئون فيها أحقادَهم المَقيتةَ على الدّينِ الحنيفِ وعلى الرّسولِ ﷺ وعلى المؤمنين، وكأنَّ السّورةَ التي تُنَزَّلُ عليهم

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/286.
(2) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/146.

صارتْ دَلْوًا يَمْتَحُ مِن صديدِ قلوبِهم العَفِنةِ، وينْشرُ من فضائحِهم أمامَ النّاس ما استقرَّ في أعماقِها - والعياذُ باللّه تعالى - منَ النّفاقِ وأهْلِه.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ جمْعًا:

المُنَافِقُونَ عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ مِنْهُمْ

جَمَع النّظمُ الكريمُ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ ليُفيدَ عُمومَ الحُكم جميعَهم، وأنّهم وإن تعدّدت ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ على المنهجِ نفسِه منَ النّفاقِ والمكرِ والخِداعِ، وذلك لا يَدَعُ أحدًا منهم بمأمنٍ منَ الافتضاحِ في الـ ﴿سُورَةٌ﴾ المُرتقَبةِ، ولا يَستثني أحدًا منهم منَ الحذرِ والخوفِ الذي أُفرِغَ في هذه القلوب إلى ما في التّطابُقِ بين جمْعِهم في أوّل الآيةِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وجمْعِ ﴿قُلُوبِهِمْۚ﴾ هنا؛ ممّا يُقرِّرُ أنَّ أفرادَهم وجماعاتِهم مُتورِّطون في اقترافِ تلك المخازي.

دَلالةُ الاسْتِئناف بـ: ﴿قُلِ﴾:

تَهديدُ اللّه ووعيدُه للمستهزئين بآيات اللّه ورُسلِه

فُصِلتْ جملةُ ﴿قُلِ﴾ عمّا قبْلَها لاختلافِ طبيعتَيْهما، فهذه أمرٌ والسّابقةُ خبرٌ، وكذلك هذه تُعدُّ استئنافًا بيانيًّا بتنزيلِها منزلةَ جوابٍ لِسؤالٍ مُقدَّرٍ ينشأُ في قلْبِ المخاطَبِ تقديرُه: وما الموقفُ منهم وما العملُ معهم يا ربُّ؟ أو: وما الحُكمُ فيهم يا ربُّ؟ فأتى الجوابُ: ﴿قُلِ﴾.

بلاغَةُ الأَمْرِ بالفعل ﴿قُلِ﴾:

الذِّكْرُ الحَكِيمُ يُكَرِّمُ الرَّسُولَ الأمين، بِتَفْوِيضِهِ بتهْدِيدِ المُنَافِقِينَ

كان يُمكنُ صِياغةُ السّؤالِ بالأمْرِ لهم صياغةَ المضارعِ الغائبِ هكذا: فليَستهزئوا كما جاء في الآيةِ السّابقةِ، غيرَ أنّ ردَّ اعتباره ﷺ وردَّ اعتبار أصحابِه الأبرارِ ناسبَه صدورُ التّهديدِ منه ﷺ مباشرةً للمنافقين، وأن يواجهَهم هو ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ تهديدًا ووعيدًا، وإلى ذلك نلمسُ في الأمر ﴿قُلِ﴾ أنّ القضيّةَ قطعيّةٌ، وأنّها ليستْ اجتهاديّةً من رسولِ اللّه ﷺ أو أنّها مجرَّدُ تَوقُّعٍ وانتظارِ أن تُنَزَّل ﴿سُورَةٌ﴾ بل إنّ الأمر جدٌّ بموجبِ التّوكيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ﴾.

بَلَاغَةُ الأَمْرِ في لفظ ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾:

أبلغُ التَّهديدِ، ما كـان من جنْسِ العملِ

الأمرُ في ﴿ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ "لفظُه الأمرُ ومعناه التَّهديدُ"[1]، فخرجَ عنِ الغرَضِ الأصليِّ للأمرِ إلى أغراضِ التّهديدِ بالفَضْحِ، والوعيدِ بالعذابِ؛ ليَزدجِروا عن سلوكِهمُ المُشينِ منَ الاستهانة بيمينِ اللّه تعالى، والتّخلُّفِ عنِ الغزْوِ بِدون أعذارٍ، والذّمِّ في الرّسول ﷺ... إلخ.

على أنّ فعْلَ الاستهزاءِ لم يَسبقْ له ذِكرٌ، وإنّما هو توصيفٌ لِمكائدِهم السّابقةِ التي اعتذرُوا عنها بعُذْرٍ أقبحَ منها فقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾، وهو منَ الآيةِ التّاليةِ التي تَضْطلِعُ بِوَجْهٍ من وُجوه الإعجازِ - هو الإخبارُ بالغيب، وأنّهم سيقولون ذلك القولَ في دفاعِهم التُّهمةَ لهم بالاستهزاء -، "وَإِنَّمَا العَجَبُ مِنْ أَمْرِهِمُ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ مَعَ هَذَا الحَذَرِ"[2].

وَجْهُ الفَصْلِ بَيْنَ جُمْلَةِ التَّذْيِيلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾:

تتابعُ التّهديدِ يخلعُ القلوبَ، وتـرتـعـد منـه الفرائس

جُملةُ الفاصلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ تذييلٌ غيرُ جارٍ مجرَى المَثَلِ لارتباطه بسِياقه ومقامِه، وفُصِلتْ هذه الجُملةُ عمّا قبْلَها؛ لأنّ السّابقةَ إنشاءٌ ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ﴾ وهذه خبرٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، وهكذا يتماوجُ السّياقُ بين الخبر والإنشاء ثم الخبرِ وهكذا، ومع ذلك تُعدُّ جُملةُ الفاصلةِ التّذييليَّةِ بِمثابة جوابِ الأمرِ، أي: استهزئوا يُخْرِجْ...؛ لأنّه لا يُعطَفُ الجزاءُ على الشّرط.

بَلَاغَةُ تَوْكِيدِ جُمْلَةِ الفَاصِلَةِ التَّذْيِيلِيَّةِ:

اِفْتِضَاحُ المُنَافِقِينَ يـقـين، مَـا لَـمْ يَـتُـوبُـوا، وإنْ سُـتِرُوا حينا من الدّهر

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾، أُكِّدَتْ جملةُ الفاصلةِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسْمِيَّةِ الجملةِ، واسْميّةِ الخبر ﴿مُخْرِجٌ﴾؛ ليتقرّر القطْعُ بِوقوعِ هذا الوعيدِ -وقد كان-، والاسْمُ ﴿مُخْرِجٌ﴾ يُمَحِّضُ الإخراجَ للاستقبال.

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/54.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 10/455.

وفي هذا التّوكيدِ إيحاءٌ بأنّه مهما تَطاوَل بهم الزّمنُ مستورين فإنَّ الإخراجَ والكشْفَ عن فضائحِهم واقِعٌ لا محالةَ، وكان ذلك داعيًا المنافقين إلى التّوبةِ والإنابةِ، لكنّهم لم يتوبُوا؛ - تصديقًا عمليًّا عِنادُهم سَببٌ فيه - لإعجاز القرآنِ الكريمِ الذي أخبرَ بهذا المستقبَلِ قبْلَ وقوعِه، وقد بَقَوْا فِعلًا عاجزين عن تكذيبِه بالتّوبةِ برغم توفُّرِ حُرِّيةِ الاختيارِ لهم في هذه الدّنيا، وما زالتِ الفُرصةُ لائحةً لكلِّ منافقٍ إلى يوم القيامةِ فهلّا اقْتَنَصُوها!

بَلَاغَةُ إِسْنَادِ الخَبَرِ ﴿مُخْرِجٌ﴾، إلى اسْمِ الجَلَالَةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ مُبَاشَرَةً:

اللهُ تعالى لِلْمُنَافِقِينَ بِالمِرْصَادِ؛ في الدّنيا، ويوم المعاد

بينما يَطوِي النّظمُ الكريمُ فاعلَ ﴿تُنَزَّلَ﴾ هناك يُصرِّحُ بالمُسنَدِ اليه ﴿ٱللَّهَ﴾ تعالى هنا، وقد رأينا البلاغةَ هناك تَكْمُنُ في الحذف، في حين لا تتحقَّقُ البلاغةُ هنا إلا بالذّكرِ؛ لأنّ ذكرَه تعالى يُقرِّرُ حصولَ الإخراجِ، و"أَنَّهُ مُخْرِجُهُ الآنَ بِتَنْزِيلِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي لَمْ تَدَعْ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْئًا مِنْ مُخَبَّآتِ نِفَاقِهِمْ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ وَأَظْهَرَتْهُ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"[1]؛ وهو تعالى لا يُخْلِفُ الميعادَ، فإذا أُسنِد إليه الإخراجُ صراحةً تأكَّدَ الحصولُ، وتقرَّرَ الحدَثُ مُستقبَلا كما تقرَّر ماضيًا.

بَلَاغَةُ التَّصْوِيرِ البَيَانِيِّ فِي الخَبَرِ ﴿مُخْرِجٌ﴾:

ما يَستُرُه المنافقون، سيُخرجُه الله مُجسَّدًا مُحدّدًا واضحًا

الإخراجُ يكونُ لِشيءٍ محسوسٍ، لكنّه هنا مُستعمَلٌ في الأمرِ المعقولِ - وهو مُضمراتُ نفوسِ المنافقين - فهُو مستعمَلٌ في معنى (الوصْفِ)؛ لِيُضفِي على مُضمراتِهم ثوبَ التّشخيصِ؛ لِيُفهِمَهم أنَّ ما يُخفونَه في نفوسِهم مِنَ التَّميُّزِ والتَّحَدُّدِ بمكانٍ، وكأنَّ مُضمراتِهم صارت مُشَخَّصَاتٍ يَقعُ عليها الإخراجُ، وهم وإن كانوا يَفهمون أنَّها إنّما تُحكَى وتُوصَفُ لكنَّ التّعبيرَ بالإخراجِ يَزيدُها حتْمًا وُضوحًا، وكأنّها صارتْ جُسومًا لن تَخفَى معالِمُها ولا تَشْتَبِهُ أوصافُها أمامَ النّاسِ.

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/455.

سرّ التّعبير باسْمِ الفاعل ﴿مُخْرِجٌ﴾:

لله تعالى القُدرةُ المطلقةُ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ

عُبّر باسْمِ الفاعل ﴿مُخْرِجٌ﴾ المُنكّر دونَ المضارع (يُخرجُ) ناسبًا الإخراجَ إليه تعالى باسْمِه الصّريحِ الأعظَمِ الدّالِّ على كمالِ قُدرته، لِيدلَّ على قُدرتِه المطلَقَةِ المُستمرّةِ على إظهارِ الحقائقِ، والأسرارِ مهما خَفيتْ.

ثم إنَّ ﴿مُخْرِجٌ﴾ اسْمٌ والاسْمُ يدلُّ على الثُّبوتِ؛ فجاء بالصِّيغةِ الاسْميّة لِما تقتضيه من دَلالةِ ثُبوتِ صفةِ قُدرتِه المُطلقةِ على إخراجِ خفايَا النّفوسِ، وخبايَا أسرارِها.

سِرُّ إيثَارِ الاسْمِ المَوْصُولِ ﴿مَا﴾:

أَضْغَانُ المُنَافِقِينَ جَمِيعُهَا عُرْضَةٌ لِلِافْتِضَاحِ، طال الزّمان أو قصر

من فضائلِ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول ﴿مَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾ أنّه يَستوعبُ كلَّ ما يدخلُ تحت جُملةِ صِلتِه، وهو هنا يُلَمْلِمُ كلَّ "الشَّرِّ الَّذِي يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَالأَضْغَانِ الَّتِي يُخْفُونَهَا فِي قُلُوبِهِمْ"[1]، ولا يَدعُ منها شيئًا يَنِدُّ عنِ الافتضاح، وذلك يزيدُهم فَرَقًا ورُعْبًا، كما أنّ من لطائفِ هذا " العُدولِ إلى التَّعْبِيرِ بِالمَوْصُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا تَحْذَرُونَ﴾... أَنَّ الأَهَمَّ مِنْ تَهْدِيدِهِمْ هُوَ إِظْهَارُ سَرَائِرِهِمْ لَا إِنْزَالُ السُّورَةِ، فَذِكْرُ الصِّلَةِ وَافٍ بِالأَمْرَيْنِ: إِظْهَارِ سَرَائِرِهِمْ، وَكَوْنِهِ فِي سُورَةٍ تَنْزِلُ، وَهُوَ أَنْكَى لَهُمْ، فَفِيهِ إِيجَازٌ بَدِيعٌ"[2].

بَلَاغَةُ رَدِّ العَجُزِ عَلَى الصَّدْرِ:

رَبْطُ أطرافِ الكلامِ، يُوثّقُ عُراه، ويُقوّي رَوابطَه

رَدُّ العَجُزِ على الصّدْرِ هنا كفيلٌ بأن يَجمَعَ أطرافَ الكلامِ ويَربط آخرَها إلى أوّلها، يُوثّقُ عُرى الكلامِ، وبه يَشتدّ وَثاقُه؛ فيوضعُ في النّفسِ وضعًا واحدًا، ويُفرَغُ إفراغًا واحدًا.. العجُزُ هنا ﴿تَحْذَرُونَ﴾ في آخرِ الآيةِ الكريمةِ، وهو يَرتبطُ ارتباطًا لفظيًّا جَليًّا بصدْرِها ﴿يَحْذَرُ﴾، ومن دقيقِ بلاغتِه أنّ الصّدرَ والعجُزَ كليهما فعلان،

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 10/454.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/249.

وكلاهما مُضارعان، وفاعلُ كليهما واحدٌ هو المنافقون؛ لذا كان رابطًا قويًّا بين طَرَفَي الآيةِ الكريمةِ؛ حتى صارتْ كالكلمةِ الواحدةِ لا يُمكنُ الاستغناءُ عن أيٍّ من عناصرِها.

دَلالةُ تَكرارِ فعْلِ الحذرِ مضارعًا، وحذْفِ مُتعلّقِه:

لم يَنفعِ الحَذرُ من إخراجِ المُضمَرِ، فالله مخرج

وفائدةُ تَكرار فعْلِ الحذرِ بصِيغةِ المضارع تقريرُ أنّ تجدُّدَ حَذرِهم لم ينْفعْهم في إخفاءِ ما تُكنُّ قلوبُهم، وما تكتمُه سرائرُهم، وأنّه تعالى مُظهرٌ ذلك ومُخرجُه. وناسبَ صِيغةَ المضارع حذْفُ متعلّقِه لِيدلّا معًا على الاستغراقِ في إرادة تصويرِ إظهارِ ما يَحْذرونَه، واسْتِحضارِه في ذهنِ السّامعِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوْفُ والحَذَرُ والاحْترازُ:

الخوف توقُّعُ الضَّرر، والحذرُ تَوقِّيه، والاحترازُ التَّحفُّظُ ممّا يسبّبه

"إنّ الخَوْف تَوقُّعُ الضَّرر المَشْكُوكِ في وُقُوعه، وَمن يتَيَقَّن الضَّرَرَ لم يكن خَائفًا لَهُ. وَكَذَلِكَ الرَّجَاءُ لَا يكونُ إلَّا مَعَ الشَّكِّ، وَمن تَيَقّن النَّفْعَ لم يكن راجيًا لَهُ. والحذرُ: تَوقِّي الضَّرَر، وَسَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا، والحذرَ يدْفعُ الضَّرَر، وَالخَوْفُ لَا يَدْفَعُهُ؛ وَلِهَذَا يُقَال: خُذْ حِذْرَك، وَلَا يُقَال: خُذْ خوفَك"[1]. أمّا الاحترازُ فهو: "التَّحفُّظُ منَ الشَّيْء المَوْجُودِ والحَذرُ هُوَ التَّحفظُ مِمَّا لم يكن إذا عُلِم أَنّه يكونُ، أَو ظُنَّ ذَلِك"[2].

ولمّا كان الحَذرُ تَوقِّيًا للضَّرَر، سَوَاءً كَانَ مظنونًا أَو مُتيقَّنًا اصْطُفيَ لفظًا في الآيةِ الكريمةِ ليدلَّ على خوف المنافقين، وخَشْيتِهم منِ انكشافِ ما في قلوبِهم.

المزاحُ والاستهزاءُ:

الاستهزاءُ مَظِنّةُ التَّحقيرِ، المُزاحُ لَا يَقْتَضِي ذلك

" المُزاحُ لَا يَقْتَضِي تحقيرَ مَن يمازحُه، وَلَا اعْتِقَادَ ذَلِك؛ أَلا ترَى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 240.

أَنَّ التَّابِعَ يُمازحُ المَتْبُوعَ منَ الرّؤساءِ والملوكِ وَلَا يقتضِي ذَلِك تحقيرَهم، وَلَا اعْتِقَادَهم تحقيرَهم، ولكن يَقْتَضِي الِاسْتِئْنَاسَ بهم... والاستهزاءُ يَقْتَضِي تحقيرَ المُستهزإ بِهِ واعتقادَ تحقيرِه"[1]. ولمّا كان في صنيعهم تحقيرٌ للرّسولِ ﷺ بأذيّته، فضلًا عن محاداتِّه اللّهَ تعالى ورسولَه ﷺ، كان لفظُ الاستهزاءِ أنسبَ للسّياقِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»